رحلة صيف الى طهران

لقد كانت أمتع رحلة بحرية قمت بها . تلك هى رحلتى فى الصيف الماضى من الكويت إلى عبادان فى طريق إلى طهران .

وإنى لاأزال أذكر ـ وقد مضت عدة شهور ـ ماأحاط ساعة السفر من جمال وجلال ، كان الوقت مساء وشمس الأصيل تداعب بأشعتها الذهبية أمواج الخليج الهادئة ، ومحرك السفينة الصغيرة يرسل نغما خافتاً هو أنسب مايكون لهذا السكون الشامل . وابتعدت السفينة بسهولة عن فرضة الكويت ، ورفاق السفر يتطلعون إلى الشاطىء وقد وقف بعض الصحاب ، وتبودلت عبارات التوديع ـ بأمان الله ، بأمان الله ـ وراحت السفينة تنساب بين الأمواه الصافية . والتفت إلى شاطىء الوطن الحبيب وقد اكتست رماله بلون الأصيل واحتضنت ـ جون الكويت ـ فراحت أمواجه تتراكض إلى الشاطىء مرحة ، باعثة فى نفوس « الركب » فرحاً ونشاطاً ممزوجين بحلو الحديث وبارع الفكاهة .

وعادت إلى الخاطر ذكريات حفلت بها هذه الشواطىء المباركة ، ذكريات سطرها التاريخ بإعجاب وتقدير ، عن هذه الأراضى الطاهرة التى شهدت خيل (ابن الوليد) تسابق الريح فى الأصباح المشرقة وعلى صهواتها فتيان خالد الأشداء فى طريقهم للفتوحات الإسلامية . . وكنت مستسلماً لهذه الذكريات العاطرة وهى تمر بخاطرى ، منصرفا عما فى السفينة من خير وشر حتى أظلم المساء ولم يطل السهر فقد نام الرفاق على هزات (المحرك) المنتظمة ، حتى لاح الفجر ففتحنا أعيننا على مناظر شط العرب الساحرة وتوضأ الركب بأجمعه لصلاة الفجر من ماء عذب فرات بعد أن كان وضوء العشاء ملحاً أجاجاً وقد كانت نادرة الوضوء بن موضوع حديث للجميع إذ أننا نمنا على (ماء) وأصبحنا على (ماء) آخر .

وأخذنا نمشى بمنة إذ أننا نقصد إيران ، والشاطىء المقابل تابع للعراق ، والشط زاخر بمختلف السفن من بخارية إلى شراعية ، وغابات النخيل تظلل الضفتين ، وهذا (جمرك) عبادان وهنا ننزل . وما عبادان إلا قرية نهضت بها مصانع (تكرير النفط) فجعلت منها مدينة حديثة البناء ناشطة الحركة ، فنزلنا فى أحد فنادقها فاذا به فندق إسما ، فعلى كثرة الوافدين إلى عبادان تفتقر إلى كثير من الفنادق النظيفة ، فأعجب لمدينة كل ما فيها نظيف إلا فنادقها . وبعد جولة قصيرة ، والحر يلهب الوجوه ـ فكأنه تجمع فى عبادان لاستقبالنا ـ عرجنا على مقهى هو أجمل مقهى لافى عبادان بل فى جميع ما رأيت من مدن إيران ، دخلناه فأنعشنا ما فيه من نسائم بليلة وأخذ بلبنا ما شاهدنا من تماثيل فخمة وزخارف منمقه ومقاعد وثيرة ، لقد كان هذا المنتزه خاتمة المطاف فى عبادان .

ولا أحدثك عن (المحمرة) جارة عبادان فكل مافيها يزور عنه النظر فمن أناس فتكت بسحنهم (الملاريا) فأحالت وجوههم إلى صفرة كدرة ، إلى أسواق مظلمة لها مداخل وليس لها منافذ ـ ومع ذلك تشرف المحمرة على (كارون) الجميل (اغترف بيديك الماء ، إنه أعذب مياه الدنيا ، ثلج مذاب وشهد مصفى !) هذا ما قاله لى أحد الأهالى ونحن نعبر ضفتى (كارون) . وتحركت السيارات المكتظة بالركاب إلى الأهواز على طريق وعر ومطبات لاتحصى كانت عاقبتها أن انكسرت السيارة فى منتصف الطريق فوقفت بمن فيها من أطفال ونسوة تحت لهيب الشمس ثم أكملنا بعدها الرحلة بسيارة شحن ـ وشىء خير من لا شىء ـ استرحنا فى اثنائها بأحد المقاهى التى تكثر فى طرق إيران وتمر بها دوريات منظمة لحفظ الأمن . . ووصلنا الأهواز فأذ تتامتاعب الطريق ، فقد كانت مدينة جميلة وكل ما احتوته ينبىء عن نظام هندسى بديع ، وهذا جسر (الأهواز) مفخرة لها ، سلسلة فولاذية متشابكة فوق نهر عريض ، منظر جميل ولا شك . وتمتاز هذه المدينة فوق ذلك بطابعها العربى وأكثر سكانها من العرب فالى جانب اللغة الإيرانية تسمع لغتك العربية فينشرح صدرك ويزول بعض مابك من ألم الاغتراب .

وفى صباح اليوم التالى بكرنا إلى المحطة فاذا هى تزخر بطوابير من الناس ينتظرون صرف تذاكر السفر ومددت يدى إلى جيبى أتحسس تذكرتى فحمدت الله لأنى قطعتها مساء أمس وإلا كنت ضائعاً فى هذه الصفوف الطويلة . وقفت وصاحبى نستعرض الناس هذا فلاح من « رشت » يلابسه الزرقاء وهذا آخر من « تنكسير » بـ « طاقيته » الصوفية وهذا الشاب الأنيق لا شك أنه من « طهران » .

واقتربت منه « سلام عليكم آغا » فأجابني بلهجة عربية فرحت لها وأخذت أسأله فيما يهمني معرفته وما يعينني على سفري « ما هي أهم محطات الطريق ؟ كم هي المسافة ؟ هل تتوفر الأطعمة في المحطات ؟ ! » وبعد قليل ضاع صديقي الأنيق في الازدحام فرجعت إلى صاحبي فاذاهما قد سبقاني وأعدا لي مكانا مريحا معهما في إحدى العربات ؛ وصفر القطار « يا أهل طهران ؛ هلموا إلى طهران » وصرت العجلات بمسير القطار .. إذ راح ينهب الأرض ماراً بكثير من مضـــارب بدو الأهواز .. حتى ابتلعته الصحراء لتسلمه إلى الجبال ، وسار ما يقرب من سبع ساعات قبل أن يرتقي أول جبل من سلسلة الجبال الشاهقة ، وعندما بدأ القطار يتسلق هذه الشواهق ويخترق الإنفاق الكثيرة — كنت وصاحبي نتأمل ونعجب ونخرج رؤوسنا من نوافذ القطار لنطل على الوديان العظيمة وما فيها من أنهار متدفقة تنبت على شاطئها أصناف شتى من أشجار الجوز والبندق واللوز — أهذه إيران وهذه جبالها ؟ ! حقا أنها رائعة هذا ما نتحدث به ونحن نطوي الجبال ونجتاز الجسور المعلقة على الوديان ونخترق الأنفاق وقد اخترقنا ما يزيد على المائة منها ،

وقفنا في كثير من المصايف على جبال كللت قممها بثيجان من الثلوج وقرى وادعة نامت على سفوح جبال كستها الأشجار خضرة دائمة ، وفي محطة « درود » سحرنا جمال المصيف فهممنا بالمبيت ولكن رغبتنا في رؤية طهران حالت أو قل — أجلت — نزولنا فيها : وجاء غلمان صغار ومع كل منهم ســـلال صغيرة من المشمش العجمي المشهور بأثمان زهيدة .. وسكتنا عن الكلام فقد امتلأت أفواهنا بهذا المشمش اللذيذ ولنؤجل الحديث إلى أن ننتهي من درود ومشمش درود ، أما الألبان والبيض وهذا الخبز الذي يبلغ طوله نصف متر أو يزيد فما يصبو إليه الجياع ، وقد كنا جياعا حقا إذ أننا أكلنا ما معنا من زاد وبقينا نترقب الفرج إلى أن من الله علينا بدرود في أعالي الصرود

ويطول الحديث لو حدثتك عن باقي المحطات ولكني أحدثك عن « عراق العجم » أو « اراك » كما يسمونها فهي سهل بين جبل مخصب تكثر فيه الماشية ويبدو فيه نشاط « المزارع »

ووقف القطار كثيراً في « قم » لأن جموعا من الزوار تنزل لتزور قبر « السيدة معصومة » ثم سار إلى طهران .

وفي محطة طهران الفخمة وقف قطارنا للمرة الأخيرة وضاع الركاب في المحطة الواسعة حتى رأينا منفذاً إلى الطريق العام فهرعنا إليه يتبعنا « الحمال » أين العربات لا شيء منها أين السيارات ؟ لا سيارات .. ما هي إلا سيارات كبيرة تحملك ولكنها لا تقبل متاعك .. وقفنا طويلا إلى أن هيأ الله لنا « عربة » ركبناها إلى « نزلنا » ولفت أنظارنا في الطريق سجاجيد تزين الجدران وزينات أقيمت على المحلات والبيوت سألنا « الحوذي » عنها فأجاب « إن هذا اليوم هو ذكرى الإمام الحسن العسكري » وهو يوم عطلة مع ما يليه ذكرى لميلاده .

ألقينا الأمتعة بالفندق وحيانا صاحبه بـ « تكشيرة » يقول رفيقي أنها ابتسامة ترحيب فغادرناه إلى جلبة الشارع وضوضاء ساحة « الطوب خانة » وهي أهم ساحات طهران ففيها بناية البلدية والتلغراف وأهم المصارف وكلها ضخمة البنـاء وهذا مركز « شهربانى » أي الشرطة تطل على منتصف الساحة حيث أقيمت التماثيل الكبيرة لملوك الفرس القدماء يحيط بهم أحواض من المياه المزينة بالنافورات وعلى جوانبها حدائق مختلفة من الأزهار والرياحين .

وفي الأيام التالية تجولنا كثيراً بين أحياء طهران وفي مختلف أسواقها حتى « البازار » فقد أرشدنا إليه محب للخير و « البازار » سوق تعرف أولها ولكنك تتيه قبل أن تصل آخرها أما ما يباع في هذه السوق فهذا ما لا يستطاع تحديده كل ما تجده ملقى على الأرض وعلى المقاعد معروض للبيع إذ أن « البازار » لا يختص في بضاعة معينة وهو مع ذلك أكتاف تتزاحم تروح وتغدو في هذه السوق المتشعبة المظلمة ، وأسرعنا في الخروج من البازار إلى نور الشمس وفي يوم آخر ذهبنا إلى « شميران » مصيف أهالي طهران .. ولا يخلو هذا المصيف من جمال الموقع وطيب الهواء غير أنه يحتاج إلى شيء كثير من النظافة ووسائل الراحة . . أما أثرياء القوم ووجهائهم فمصيفهم في « سربند » فوق شميران حيث المياه الجارية والثلوج التي تعلو قمم الجبال وحيث تتوفر النظافة التامة والحدائق الجميلة .

لقد كانت رحلتي هذه على قصر أمدها رحلة ممتعة فجمال الطريق بين الأهواز وطهران أبدع الله عز وجل صنعه فبدت فيه مناظر تسر لها العيون وتهفو إليها القلوب ؟

الكويت

محمد الفوزان